(١)

قصة أصحاب الغار

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم .

قال رجل منهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقَهما [1] .فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت (والقدح على يدي) انتظر استيقاظهما حتى برقَ الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ،فاستيقظا فشربا غبوقَهما : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبَّ الناس إليّ (كنت أحبها كأشدّ ما يحب الرجالُ النساءَ) ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمتّ بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها (فلما قعدت بين رجليها) قالت : يا عبد الله ، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

---

(١) الغبوق : شراب المساء ، والصبوح : شراب الصباح .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أدّ إليّ أجري فقلت : كلُّ ما ترى من أجرك : من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال : يا عبد الله ، لا تستهزئ بي ، فقلت : لا أستهزئ بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» [1] .

دروس من القصة :

من الدروس : جواز التوسل إلى الله بصالح الأعمال . فقد توسّل الأول ببره بوالديه ، وتوسل الثاني بمخافته من الله ، تلك المخافة التي دفعته إلى ترك الفاحشة ، وتوسل الثالث بحفظه لأموال أجيره ، فثمر له ماله ، وعندما عاد أعطاه مالا عظيما .

ومن الدروس : أهمية الدعاء عند حلول الكرب والبلاء ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [2] . وقال تعالى :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [3] .

فالعباد عباده ، والرد المباشر عليهم منه وحده . لم يقل : فقل لهم : إني قريب ، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال ، ولم يقل أسمع الدعاء ، إنما عجّل بإجابة الدعاء : أجيب دعوة الداع إذا دعان [4] .

في الحديث عن سلمان الفارسي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبين» [5] .

والناس قد يغفلون عن الدعاء في ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . أما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرهم الكرب ، تزول عنهم غشاوة الغفلة ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

---

(١) البخارى (٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣/ ١٠٠) .
(٢) غافر : ٦٠.
(٣) البقرة : ١٨٦.
(٤) فى ظلال القرآن : سيد قطب ١/ ١٧٣.
(٥) أبو داود (١٤٨٨) ، والترمذى (٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) .

والمضطر الذي أوشكت سفينته على الغرق ، أو الذي سقط في متاهة لا يعرف كيف يتخلص منها ، أو دخل غارا للمبيت فانحدرت صخرة فسدت عليه الغار، ينظر حواليه فيجد نفسه مجردا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ، وكل ما كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى ، في هذه اللحظة لا يجد له ملجأ إلا الله فهو الذي ﴿ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[1] .

ومن الدروس : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقبل العمل ، مهما كان نوعُه ، عندما يفعله صاحبه لوجه الله ، فهؤلاء لم يدعوا الله بصلاة أو صيام أو حج أو زكاة ، وإنما دعوه بالأعمال التي يقوم بها كل إنسان صالح في تعامله مع الأحداث .

ومن الدروس : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يغفر للعبد ، ويسارع لنجدته ، فما أن أنهوا دعاءهم ، حتى استجاب الله الدعاء وفرّج عنهم .

ومن الدروس : أن يجعل الإنسان بينه وبين ربه أعمالا صادقة مخلصة ، يدخرها ليوم عصيب. فموقف صادق واحد قد ينجي الإنسان من كرب عظيم في الدنيا والآخرة .

---

(١) النمل : ٦٢ ، وانظر: في ظلال القرآن : سيد قطب ٥/ ٢٦٥٨ .

(٢)

قصة الراهب والعالم

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله ـ تعالى ـ فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصفَ الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله ـ تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم (أي حكما) فقال : قيسوا ما بين الأرضيْنِ فإلى أيتهما كان أدنى فهو له . فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة» [(١)] .

دروس من القصة :

من الدروس : سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين ، مهما كثرت ذنوبهم : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [(٢)] .

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية. كائنة ما كانت. وإنها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله .

---

(١) البخارى (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦/ ٤٦) واللفظ لمسلم .
(٢) الزمر : ٥٣ .

إنه الإنسان ، وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى، وشرد عن الطريق ، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية . وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان [1] .

ومن الدروس : فضل العالم على العابد، فقد أفتى العابد بجهل، وأفتى العالم بعلم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

والعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس [3] .

ومن الدروس : أن المؤمن يحتاج إلى أرض خير يعبد فيها الله ، وإلى بيئة صالحة تحثه على الخير ، وإلى البعد عن أرض السوء التي تغري الإنسان بارتكاب الفواحش والمنكرات .

والانتقال من بيئة كافرة إلى بيئة أخرى صالحة، تربط المؤمن بمؤمنين آخرين ، يتعاطف معهم ، ويلقاهم على حديث الإيمان وأفعال الإيمان .

فيصلي معهم وتصبح الصلاة عادة . ويستمع معهم إلى القرآن ، ويصبح استماع القرآن عادة ، ويتواد معهم وتصبح المودة عادة . ويتحمل معهم الكروب ، ويصبح احتمال الكروب في سبيل العقيدة عادة ، وينشئ مجتمعا تعيش فيه التصورات والفضائل الإسلامية ، وبذلك تصبح العادة عملا فرديا وارتباطا اجتماعيا في آن واحد ، فيضمن لها الدوام والاستمرار [4] .

ومن الدروس : أن هذا الرجل دخل الجنة ولم يعمل خيرا قط ، وكما تخاصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فما زال هذا الخصام موجودا حتى اليوم بين قوم يرون أن الإيمان اعتقاد وعمل ، وقوم يرون الإيمان اعتقاد بالله ورسوله ، وقد يدخل الجنة مؤمن لم يعمل خيرا قط [5] .

---

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ٥/ ٣٠٥٨ .
(٢) الزمر : ٩ .
(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٠٤٢ .
(٤) التربية ودورها في تشكيل السلوك ، للمؤلف .
(٥) يراجع في ذلك كتاب : دعاة لا قضاة : الإمام حسن الهضيبي .

(٣)

قصة أصحاب الأخدود

لقد كان في قصصهم عبرة :

عن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

«كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلمّا كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلّمه ، فكان في طريقه -إذا سلك- راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر. فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم : الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره . فقال له الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل منّي ، قد بلغ من أمرك ما أرى .

المحنة سنة الدعوات :

وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكمه [1] . والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله ـ تعالى ـ فإن آمنت بالله ـ تعالى ـ دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله ـ تعالى ـ فشفاه الله ـ تعالى ـ فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس . فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك؟

---

(١) الذى خُلق أعمى .

قال : ربي .

قال : ولك رب غيري؟

قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل! فقال : إني لا أشفي أحدا ، إنما يشفي الله تعالى . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله تعالى . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور [1] . وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه . فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله تعالى .

باسم الله رب الغلام :

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال : ما هو؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه فمات . فقال الناس :(آمنا برب الغلام)،فأُتي الملك فقيل له :أرأيت ما كنت تحذر ، قد والله نزل بك حذُرك . قد آمن الناس .

---

(١) سفينة صغيرة .

أصحاب الأخدود :

فأمر بالأخدود بأفواه السِّكك [1] . فخدّت وأضرم فيها النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أمه اصبري فإنك على الحق» [2] .

معالم تربوية :

تناولت القصة بعض التفصيلات في قصة أصحاب الأخدود، التي خلَّدها القرآن الكريم في سورة البروج ، وهي حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل حين .

فالقرآن الكريم وهو يتناول هذه القصة ، كان يخط بها خطوطا عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع - وهو أوسع رقعة من الأرض ، وأبعد مدى من الحياة الدنيا- وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق ، ويعدّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور .

إنها قصة فئة آمنت بربها، وأعلنت حقيقة إيمانها . ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق (الإنسان) في **حرية الاعتقاد** بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد ، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها،ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعا ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

---

(١) جمع سكة وهى الطريق .
(٢) مسلم (٣٠٠٥/ ٣) ،والترمذى (٣٣٤٠) .

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة . وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار . يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون . جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناسي الكرام يتحولون وقودا وترابا . وكلما ألقي فتى أو فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل أو شيخ ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة ، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة ، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليقتات ، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع ، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور.

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان . وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية ، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة ، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط . أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة؟

أفهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التي ارتكست إلى هذه الحمأة ، ناجية؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيئاً أمام هذه الخاتمة الأسيفة !

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يتحلون بها ، وبمجال المعركة التي يخوضونها .

القيمة الكبرى في الميزان :

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان ، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة ، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة. فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي **قيمة العقيدة** ، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان . وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار العقيدة على الألم ، وانتصار الإيمان على الفتنة ، وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم ، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة ، وانتصرت على الفتنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الاعصار، **وهذا هو الانتصار** .

إن الناس جميعا يموتون ، وتختلف الأسباب ، ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع ، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق . إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون الناس في المجد ، المجد في الملأ الأعلى ، وفي دنيا الناس ـ أيضا ـ إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟

إنه معنى كريم جدا ،ومعنى كبير جدا ،هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض ، ربحوه وهم يجدون مس النار، فتحترق أجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار !

مجال المعركة :

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها، وليس هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال . إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض

ويشهدها ويشهد عليها، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها ، وغير ميزان الأرض في أجيالها جميعا .

والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس ، وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة ، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض ، ولا ينفصل عنه ، لا في الحقيقة الواقعة ، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة .

فالمعركة إذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تجئ بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد [1].

أما الدروس التربوية التي نستنتجها من هذه القصة فهي :

١ - **القصص** : أسلوب مهم من وسائل التربية الإسلامية . فهي تسهم بطريقة عرضها، وإدارة حوادثها ، ومن خلال توصيل المعلومات والحقائق بطريقة شيقة ، باستثارة نفوس السامعين وتجعلهم أكثر ميلا للتقليد والاقتداء بأشخاص القصة :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [2] .

٢ - ومن الدروس أن **المحنة** من سنن الدعوات ، وليس صحيحا أن المحنة لا تقع إلا نتيجة خطأ يرتكبه الدعاة ، ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ ﴾ [3] .

إن الإيمان ليس كلمة تقال ، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء ، وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم .

---

(١) معالم في الطريق : سيد قطب ، ص ١٧٣-١٧٧ .
(٢) يوسف : ١١١ .
(٣) العنكبوت .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية، في ميزان الله ـ سبحانه ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1] .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص .

إنها أمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة ، فهي أمانة كريمة ، وهي أمانة ثقيلة ، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

والفتنة أنواع :

من الفتنة : أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ، ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان ، وهذه هي الصورة البارزة للفتنة.

وهناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعا . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ، وينادونه باسم الحب والقرابة .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، بينما هو وإخوانه لا يملكون من أمر الحياة شيئا .

وهناك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقا في تيار الضلالة، وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك الفتنة الكبرى أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان ، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع

---

(١) العنكبوت .

المعوقات والمثبطات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة، وفي منطق البيئة ، وفي تطورات أهل الزمان!

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله . كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء والأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

جاء في الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإذا كان في دينه صلابة زيد له في البلاء »[1] .

٣- ومن الدروس : أن الهمّ الأكبر للدعاة هو انتصار الدعوة ، قبل أن يكون النجاة لأشخاصهم ، فالغلام هنا يرشد الطاغية إلى أمر يتمكن فيه من قتله ، ولكنه الأمر الذي تنتصر به الدعوة ، فما يتصوره بعض الناس نوعا من البلاء ، قد يكون سببا لنصر الدعوة .

٤- ومن الدروس : أن الناس جميعا يموتون ، ولكن أصحاب الدعوات وحدهم الذين يتفردون في المجد في الدنيا والآخرة .

٥- ومن الدروس : أن الله يهيئ لدينه بين الفترة والفترة من يجدد للناس أمر دينهم، كما هيأ الغلام ليكون سببا في إيمان قومه .

قصص ذكرها القرآن الكريم وهو يربي المؤمنين .وما على الدعاة إلا الوعي والالتزام والتطبيق .

---

(١) ابن ماجه (٤٠٢٣) ، وأحمد ١/ ١٧٢ ، ١٧٤ .